

مجلة كلية الكنعنة الإسلامية

عشر
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعية - محكمة تصدر سنوياً

1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

اخْتِتام النَّبَوَّةِ
ظَاهِرَةُ الشُّعْرَاءِ الْكُتَّابِ فِي لَبِيدِهَا
مَا لَمْ يُذْهِعْ مِنَ الْمَصْطَلِحَاتِ النُّحَوِيَّةِ
مَجْمَعُ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ



الدكتور فاتح محمد زقلام

مصطلح كلامي يقصد به: استواء الله تعالى على عرشه، الوارد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

وقد جاء الاستواء في لسان العرب على وجوه:

أ - منها الاستتمام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أي استتم شبابه، وقوله تعالى: ﴿كَزَرَخَ أَخْرَجَ سَقَطَهُ فَتَزَرَّوْا فَاسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ أي استتم ذلك الزرع وقوي.

ب - ومنها الاعتدال، قال بعض بني تميم: فاستوى ظالم العشيرة والمظلوم، أي اعتدلا.

ج - ومنها القصد إلى الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي قصد خلقها.

د - ومنها الاستيلاء على الشيء، قال الشاعر:

إذا ما غزى قوماً أباح حريمهم وأضحى على ما ملكوه قد استوى

هـ - ومنها الاستقرار، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ أي استقررت، وقوله تعالى: ﴿لِاسْتَوَا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي لتستقروا.

و - ومنها ما نقل عن ثعلب: الاتصال، والامتلاء، والتماثل، يقال: استوى الوجه أي اتصل، واستوى القمر: امتلأ، واستوى فلان وفلان: تماثلا.

ز - ومنها الإقبال والصعود والعمد، تقول: استوى إلى السماء أي صعد أو عمد أو قصد أو أقبل عليها أو استولى، وهذه المعاني يمكن رد بعضها إلى بعض.

وقد ورد (استوى على العرش) في القرآن الكريم في ستة مواضع:

الأول: في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾.

الثاني: في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾.

الثالث في سورة طه: ﴿نَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

الرابع في سورة الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا﴾.

الخامس في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾.

السادس سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

وقد اختلف علماء هذه الأمة في المراد بهذا الاستواء، بعد اتفاقهم على النقاط التالية:

النقطة الأولى: اتفقوا على أن ما سوى الله تعالى حادث، ومن ذلك العرش، قال البيهقي في الأسماء والصفات: (اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم خلقه الله، وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم

بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة..) وكون سرير الملك يسمى عرشاً مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ يَأْتِينَ بِعَرْشِهَا﴾ وأخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال: قلنا: يا رسول الله: أين كان الله قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء. فهذه النصوص تدل على أن العرش حادث غير قديم.

النقطة الثانية: واتفقوا على أن الله تعالى قديم، لا بداية لوجوده، وإلا كان حادثاً فيحتاج إلى محدث، وحينئذ يلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل عقلاً بالإجماع.

النقطة الثالثة: واتفقوا على أنه تعالى مخالف للحوادث، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِياً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُواً أَحَدٌ﴾ فليس تعالى جسماً، ولا حالاً في جسم، ولا جوهرأ ولا عرضاً ولا مستقراً على عرش، ولا في سماء ولا في جهة ولا يمر عليه زمان، إلى غير ذلك مما هو من صفات المخلوقين، لأنه تعالى خالق لهذه الأشياء جميعها وموجود قبل إيجادها وغني عنها فهو على الصفة التي كان عليها قبل إيجادها.

النقطة الرابعة: واتفقوا على أن ما ورد من الآيات والأحاديث الموهمة للتشبيه، مصروفة عن ظاهرها، للقطع بحدوث هذا الظاهر وبقدمه تعالى ومخالفته للحوادث.

إذاً فما المراد بالاستواء على العرش؟

لو حملنا اللفظ على ظاهره لكان المعنى أنه - تعالى - مستقر على العرش، لأن استوى في هذه الآيات تعدت بـ (على)، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِاسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾.

وهذا المعنى يؤدي إلى أمور مستحيلة لا تليق بذات الخالق العظيم

سبحانه وتعالى، منها: حدوثه تعالى، واتصاله بالحوادث، وكونه جسماً، ومحدوداً، ومحمولاً، إلى غير ذلك مما يستلزمه هذا الظاهر من المستحيلات في حقه تعالى، لذلك اتفق علماء هذه الأمة سلفهم وخلفهم على أن مثل هذه الآيات مصروف عن ظاهره، للقطع بمخالفته تعالى للحوادث.

واختلفوا بعد ذلك على مذهبين:

الأول مذهب السلف: وهو التسليم بهذه الآيات والأحاديث كما وردت، وتفويض علم المراد بها إلى الله تعالى مع تنزيهه تعالى عما لا يليق به من صفات الحدوث.

ومما ورد عنهم في الاستواء:

أ - ما نقل عن أم سلمة - رضي الله عنها - أنها قالت: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر.

ب - وما روي عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه سئل: كيف استوى على العرش؟ فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول وعلى الله الرسالة وعلى رسوله البلاغ وعلىنا التسليم.

ج - وما نقل عن عبد الله بن وهب قال: كنا عند مالك، فدخل رجل، فقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك، فأخذته الرخصاء، ثم رفع رأسه وقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف به نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع، ولا أراك إلا صاحب بدعة، أخرجوه.

وفي رواية أخرى عن مالك قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالاً، ثم أمر به فأخرج، ومعنى قوله الاستواء معلوم: أنه مصرح به في القرآن، ففي رواية أخرى للشافعي عن مالك: الاستواء مذكور وكيفيته مجهولة، يعني لا نعلم معناه لأنه لا يعلم معنى المتشابه إلا الله تعالى.

د - وسئل الإمام أحمد عنه فقال: الاستواء كما أخبر، لا ما يخطر للبشر.

هـ - وسئل الإمام جعفر الصادق عنه فقال: من زعم أن الله تعالى في

شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً.

و - وسئل ذو النون المصري عن ذلك، فقال: الرحمن لم يزل والعرش محدث والعرش بالرحمن استوى.

ز - وسئل الإمام الشافعي عن ذلك فقال: آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسي في الإدراك وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك.

الثاني مذهب الخلف: هو تأويل هذه الآيات بما يدل عليه اللفظ العربي، لأن القرآن الكريم نزل بلسان العرب، وإنما حملهم على تأويل هذه الآيات، ولم يفوضوا كما فوض السلف، وجود بعض الفرق المنحرفة في زمانهم، كالمشبهة والمجسمة الذين يزعمون أن ظاهر الآيات يدل على أنه تعالى جسم، ولم يفقهوا أنه تعالى يستحيل عليه الجسمية، والحلول في الأمكنة، لأنها حادثة وهو قديم موجود قبل إيجادها، فهو تعالى لم يزل بالصفة التي كان عليها وأيضاً فهموا أنه لا وقف على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وجعلوا والراسخون في العلم معطوفاً على لفظ الجلالة، أما الأولون فقد جعلوا الوقف على لفظ الجلالة وجعلوا قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾ مستأنفاً.

وقد اختلفت عباراتهم في معنى الاستواء، ومن أحسن ما قالوه:

أ - الاستواء بمعنى الاستيلاء بالقهر والغلبة أو بمعنى استواء التدبير، كما يستوي الملك من البشر على مملكته، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

فلا يصح عقلاً ولا عادة أن يستوي بشر استواء قعود على جميع البلاد العراقية، وحينئذ لا يراد من قول الشاعر إلا القهر والغلبة والتدبير، وأين استواء بشر المخلوق من استواء الباري سبحانه وتعالى، وإنما خص العرش بالذكر في معرض القهر والغلبة لأنه أعظم مخلوقات الله تعالى، فإذا كان مقهوراً مغلوباً لله تعالى كان غيره من المخلوقات التي هي دون عظمته أولى بذلك.

ب - ما ذكره أبو طاهر القزويني، قال: اعلم أن الله تعالى قد خلقنا من الأرض في الأرض، وخلق فوقنا الهواء، وخلق من فوق الهواء السموات السبع طبقات فوق طبق، وخلق فوق السموات الكرسي، وخلق فوق الكرسي العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات، ولم يبلغنا في كتاب ولا سنة أن الله خلق فوق العرش شيئاً، وما جاء من ذكر السرادقات والشرفات والأبواب - على تقدير صحته - هو من جملة العرش وتوابعه، فمعنى قوله جل جلاله ﴿عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي﴾: استتم خلقه بالعرش، فلم يخلق خارج العرش شيئاً، وجميع ما خلق ويخلق دنيا وأخرى لا يخرج عن دائرة العرش، لأنه حاو لجميع الكائنات، ومع ذلك فلا يزن في مقدوراته ذرة، فأنى يكون مستقراً؟ وأولى ما يفسر القرآن بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أي استتم شبابه وقال تعالى: ﴿كَرَّجَ أَخْرَجَ سَطَفَهُ فَتَزِدُّهُ فَاسْتَفَلَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ أي استتم ذلك الزرع وقوي، فعلى هذا التقرير يكون فاعل استوى ضميراً عائداً على المصدر المفهوم من لفظ (خلق) و (على) بمعنى الباء في قوله (على العرش)، فيكون المعنى استتم واستكمل الخلق بالعرش، فلم يخلق شيئاً فوق العرش، ويرجع الضمير لمصدر خلق يندفع كل إشكال، ورجوع الضمير للمصدر المفهوم من الفعل السابق شائع في كلام العرب وورد في كتاب الله تعالى، وفي أشعار العرب، قال تعالى: ﴿عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ هو أي العدل المفهوم من (اعدلوا)، وقال الشاعر:

وَإِذَا سُئِلْتَ الْخَيْرَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا حَسَنَى بِهَا تَحْطَى مِنَ الرَّحْمَنِ

فقوله (أنها) أي المسألة المفهومة من (سئلت) السابق.

وإتيان (على) بمعنى الباء وورد في كتاب الله قال تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾، فقوله (علي) هنا أي بي، وقد قرئ في بعض القراءات حقيق بي، قال أبو طاهر: إيضاح ذلك هو أن الله تعالى ما ذكر الاستواء على العرش في جميع القرآن إلا بعد ذكر خلق السموات والأرض وذلك في المواضع الستة السابقة، والمعنى في هذه الآيات كلها سائغ على ما ذكر من كون الضمير في (استوى) راجعاً إلى الخلق المفهوم من الفعل

السابق، وعلى بمعنى الباء، إلا ما جاء في سورة طه من قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وفي سورة الفرقان ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ والجواب على ذلك هو أن الشبهة إنما وقعت فيهما من جهة النظم، وإلا فالقصة في جميع الآيات واحدة، وللنظم طرق عجيبة في القرآن، فأما قوله في سورة طه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأُولَى﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿ فالرحمن تفسير وإيضاح لقوله (ممن) فهو خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الخالق هو الرحمن، ثم قال: ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استتم خلقه بالعرش - كما قررنا - ووقع استوى في آخر الآية لأن مقاطع هذه السورة على الألف المقصورة، وأما قوله في سورة الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ فهو من باب السبك، على حد: الذي جاء زيد، فالذي في الآية مبتدأ وخبره الرحمن، وقوله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، صلة الذي، وقوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ اعتراض في الكلام، ومعناه: ما قررناه أي استتم واستكمل خلقه بالعرش، انتهى كلام أبي طاهر.

هذا، ومذهب السلف أسلم، لأنه يحتمل أن الله عز وجل أراد معنى في الآية غير ما فسر بها الخلف.

والله تعالى أعلم

المراجع

- 1 - الدين الخالص. تأليف: محمود محمد خطاب السبكي الجزء الأول.
- 2 - إتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف في المتشابهات. تأليف: محمود محمد خطاب السبكي.
- 3 - استحالة المعية بالذات ببيان مذهب السلف والخلف في المتشابه والصفات. تأليف: الشيخ محمد الخضر بن ماياي الشنقيطي.
- 4 - العلو للعلي الغفار. تأليف: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي.